(١٩)

المعروف بالتفريد
المنزه عن الإطلاق وعن التقييد
ظهره الإنسان بالإطلاق حقا لله غيبا وأزلا
وبالتقييد وجودا وعالما وكونا وأبدا

حديث الجمعة

٢ صفر ١٣٨٤ هـ - ١٢ يونيو ١٩٦٤ م

اللهم انشلني من أوحال التوحيد، إلى فضاء التفريد.

اللهم ارزقني الإيمان بك، معنى منزها عن الإطلاق وعن التقييد، معنى عرفه الإطلاق وظهره التقييد.

اللهم خذني مني، ولنفسي لا تكلني، وفي حصن وحدانيتك فأدخلني، بإدراك لا إله إلا الله، عَلَما ويقينا، قولا وفعلا، ودركني معناي فيك عدما، ودركني معناك منك لي وجودا، ولا تجعل لي شهودا إلا ما أشهدت، ولا مشهودا إلا ما قمت، وألحقني بلطيفك، ولا تحرمني من تشريفك، حتى تشهدك فأشهدك، وحتى أشهد بك، وأشهد منك، واكشف الغطاء عني حتى أشهدني منك. لا إله إلا أنت.

وجهتنا إلى طريق التأدب لك في نظر التعدد معك، بأن نرى الحسنة منك، والسيئة من أنفسنا، فأيقظنا الأدب إلى محيط قدرتك، فأعلمتنا وعلمتنا، من فيض رحمتك، وإشباعا لفراغ وعينا بدائم تساؤلنا عنا في تساؤلنا عنك غيبا علينا، أن نعلم مفتاحا لعلومنا أن كل شيء إنما هو من الله، ما أصاب من حسنة، أو من سيئة في الأرض، أو في السماء، إلا بإذنه، وما كسب مُحسن، أو فقد مسيء، إلا بما قام في المحسن والمسيء من أمره، حرا في أمره بحرية المرء في أمره من أمر ربه في حدود محيط أمر الله.

من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، فما كان أمره إلا من أمره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، فما كان أمره إلا من أمره. وما كان أمره في هذا أو أمره في ذاك، إلا من الفطرة. صبغة الله في أمره، وفي شأنه، وفي حكمته، وفي تنزيهه عن الإطلاق وعن التقييد، وفي تفريده في حقيقته. قامت بأسمائه، واتصفت بصفاته كل الأمور بحكمته. (كن كيف شئت فإني كيفما تكون أكون)[1]، {وما تشاءون إلا أن يشاء الله}[2]، {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا}[3]، (إنما هي أعمالكم ترد إليكم)[4].

تجلى الحق بالإنسان، لبروزه من كنزيته، ظهوراً بوجوده، في موجود الإنسان لنفسه، عبدا وحقا لربه، خلقه أزواجا. وعلا به طباقا حقيقة وحقا، ودانى به طبقا بعد طبق رسالة وخلقا، عبادا للأعلى ربا لهم، والأعلى فالأعلى إلها عليهم تنزيها لعاليه عن عين دانيه، وتنزيها لدانيه عن الغيرية لعاليه.

فاسم الله.. يقوم بالإنسان، والإنسان باسم الله يقوم، في أحسن تقويم أو في أسفل سافلين، في آن واحد، قوسان متلاقيان، ومتباعدان. فشتان بين الإنسان في عاليه، والإنسان في أسفله ودانيه. وما أقرب الإنسان، بدانيه من عاليه، وبعاليه من دانيه في المطلق من ورائهما بإحاطته. قوسان يحيطان ويمسكان بالوجود وبالأكوان، باسم الله، يدا لله، كلتا يديه يمين، الأرض جميعا قبضته، والسموات مطويات بيمينه، يوم يُدرَك للمدرك أمره، بقيام قيامته بقيام أمره من أمر ربه، بكشف الغطاء عنه، لفتح عيون بصره بامتداد نور بصيرته.

الإنسان محل عظمة الآلاء والإحسان إلى معنى الحق له وجها لله. الإنسان ترجمان الدين والديان.. الإنسان في ظلامه، والإنسان في إشراقه شتان، شتان بين الظلام والنور، بين الظل والحرور، بين الجاه والذِلة، بين الحق والتعليل والعلة، بين العلم والجهل، بين الحياة والعدم، بين المسرة والندم، بين روح المكان والمكان، بين الإنسان والحيوان، بين البقاء والفناء، بين الحركة والسكون.

الإنسان بذكر الله لمعناه يحيا ويحيا، وبه الموات يحيا، وبه التراب يحيا، وبه الظلام يحيا، وبه النور يحيا، وبه الروح تحيا، وبه الحياة تحيا، إذ تتواجد طبقاته بالحياة من الحياة، ومن حياة إلى حياة وحياة.

(الله).. من يكون الله؟ ولمن يكون الله؟ ومتى يكون الله؟ وأين هو الله؟ متى للإنسان أن يَعرِفه؟ ومتى للإنسان أن يلقاه؟ متى يداني عَليُّ الإنسان دني الإنسان؟ متى يداني أحسن تقويم من كان منه لا زال في أسفل سافلين، فينفخ فيه من روحه، ويضاعف له نور الحياة فيه، نورا على نور، وحياة على حياة؟

متى يمحو العلي ذِلة المنحط الدني؟ متى يعرف الإنسان نفسه بعزلتها عن عاليه أنها معاني الانحطاط فيه؟ ومتى يعرف الإنسان روحه أنها معاني الوجود له؟ ومتى يعرف الإنسان عقله أنه سر الحياة فيه؟ ومتى يوقظ الإنسان ضميره ليعلم أنه عين الله فيه، ورقيب الله عليه، وشهيد الله إليه، ورحمة الله به، ويد الله عنده، وعون الله له؟

متى يعلم الإنسان أنه بين يدي رحمة الله، وأن يدا الله برحمته ما كانتا إلا ليل سكينته، وفجر طلعته، يجتمعان على أرض قيامته، من قلوب في أكنتها، للإنسان في بشريته، وموالد فطرته؟

إن الإنسان في مولد الفطرة، من مولده من الأرض، إلى مولده من النور، إلى مولده من السماء، يوم يمج ظلام نفسه وتتفتح آذانه إلى كلمات الله إليه على ما كلمه برسالته وقد خصه بكلامه، ووعده بسلامه، وطالبه بالتسليم له بالتسليم لمن سَلَّم له والدخول في السِلم معه، بالدخول في السلم مع حقائقه بعباده إنهاءً للخصام، واستجابة للأمر وقبولا للكلام. يا أيها الناس {ادخلوا في السلم كافة}[٥]، {إن الإنسان لربه لكنود}[٦]، {قُتل الإنسان ما أكفره}[٧].

إن الإنسان إذا استغرقته يد النور لم يعرف سكينة الليل، وإذا غمرته يد الظلام احتجبت عليه إشراقة النور. إن الإنسان ليعرف ما النور، وليعرف ما الظلام، وجب عليه أن يتجرد بمعناه، وينأى بذاته وبأناه عن الاستغراق، سواء في النور، وسواء في الظلام، يوم يعرف فيرافق، ويتمسك بصحبة من تجرد من النور ومن الظلام، من عَرف رب النور والظلام، من لم يره من أهل النور أو من أهل الظلام، من رآه يتيما عن النور وعن الظلام، يوم يتمسك برسول الله الذي أظهره الله على الدين كله، فنزه الله، وأفرد الله، وقام مضافا إلى الله، عبدا له، ومسيحا لربه فيه وجها للأعلى، وما كان إلا رفيق الأدنى، وما كان وجه الأعلى للأدنى، إلا رسول الأعلى إلى الأدنى، إلا رسول الله.

فمن عَرَف رسول الله، معنىً دائما، وأمرا قائما، وحقا متكلما، فاستقى من معارف رسول الله، فعرف ما عرف رسول الله عبدا للرحمن، نزه الله على ما نزهه رسول الله، وأضاف إليه منزها ما نزهه عنه بوصفه صفات له، وأسماء له، وحقائق فيه، بعباد له، بكليات وجود حجبا وعوالم لمفردات تواجد في كلياتها، حقائق من الله، تقوم بالله، وتنو في الله، ولا تذكر إلا الله، راجعة إلى الله، حجبا من النور والظلمة لأحدية حقها منزها عن أوصاف النور والظلام.

فالنور مدينة العلم عن الله، والظلام بيت السكينة من الله. فالعزلة بالأنانية عن مطلقه لعين الأنا استقامة فيه، ووعي عنه. والإمحاء إلى عين وجوده بإنسان حقه نعمة منه، وسعادة تقوم به. والعزلة عنه مع القول به مغايرا مباعدا قيام للشرك بالنفس معه. والإنكار عليه أقرب من حبل الوريد لعين

المنكر هو معنى الكفر به. والدخول في حصن وحدانيته هو بدء الحياة، وقيامة الحياة، والعروج في الحياة. والدين هو قيامة القيوم على القائم من أمر الحياة، في معراجها إلى أكبر فأكبر، وأظهر فأظهر، وأخفى فأخفى، وأعمق فأعمق.

إن المقام المحمود عند أي قائم، إنما هو الأقوم في نظره، على ما هو قائم. فالمقام المحمود عند الرحيم، إنما هو الأرحم والأوسع من رحمة الله. والمقام المحمود عند اللئيم، إنما هو ما هو الألأم والأخبث من قيام القائم مخدوعا فيه به في مكره بنفسه، بوهم مكره بالناس حسب إدراكه وحسه. إن الذي يرى الخبث في الناس والطهارة في نفسه، إنما هو من يراه الناس في خبثه، ويدركون بإدراكهم لخبثه فضل الله عليهم في أنفسهم إنهم لم يكونوه. إن المقام المحمود عند الطاغي، إنما هو الأطغى منه. إن المقام المحمود عند المتكبر، إنما هو الأكثر تكبرا منه، أو المتكبر عليه.

إذا ظهر الله بكبريائه على المتكبر، فقد تصدق عليه بإذلاله في كبره، وكشف ضعفه في كبريائه، وهذا من جانب الله رحمة منه به، أما من جانب النفس ففي هذا عذاب الله، وفي هذا مقت الله، وفي هذا غضب الله، وفي هذا سخط الله، وفي هذا لعنة الله. (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[٨].

إن المقام المحمود عند الرحيم، هو ما عند من هو أرحم منه من الرحمة. فإذا تجلى الرحيم على الرحيم، إذا تجلى الأعلى على الأدنى، رحيما على رحيم، كان في هذا سعادة المرحوم في رحمته، وكرم الرحيم بمنته.. وفي هذا معنى الرضاء.. وفي هذا معنى الوفاء.. وفي هذا معنى الجزاء.. وفي هذا معنى القرب.. رضي الله عنهم ورضوا عنه.

إن الرحمة مع الرحمة لا تتنافران.. وإن الكبرياء مع الكبرياء لا يأتلفان ولا يلتئمان، فبين أهل الكبر فرقة، وبين أهل الرحمة أُلفة، الراحمون يرحمهم الرحمن، والمتكبرون يتكبر عليهم الديان، ومن نوقش الحساب فقد هلك.

إن صحبة رسول الله.. إن أُلفة رسول الله.. إن الوحدانية مع رسول الله.. إن المتابعة لرسول الله.. إن القيام بأمر رسول الله.. إن السير خلف رسول الله إلى الحج وإقامة الصلاة.. إن مصاحبة رسول الله مع من عرف رسول الله.. مع من قام رسول الله.. مع من قامه رسول الله.. مع من امتد فيه نور الله من رسول الله.. مع من كان لرسول الله ظلا.. مع من كان لرسول الله مسلما.. مع من كان لرسول الله يدا ووجها.. إن في هذه الصحبة وجاء من الفتنة، وأمان من الضلالة، ويسر من كسب الحياة، وطريق ممهد مستقيم إلى الحق، بدءا من قائم الحق على الخلق، إلى قائم الخلق بالحق،

ملأً أعلى، يرجوه الأدنى لما فيه، وهو يسعى رحمة من الله إلى الأدنى ليوفيه، ويرتفع به إلى معانيه، فيجدد نفسه لدانيه، من أصل نشأته، من أرض شجرته ليعرف بحقه ورحمته، عند قومه وبيئة بدء خلقته، إلى قيام حقيقته.

هذا هو الحق من ربكم.. هذا هو الحق من رسولكم.. هذا هو الحق على ما جاء به دينكم.. هذا هو الحق على ما حَدَّثكم به دَيانكم، فمن شاء ذكره، ومن ذكره ذَكَّره، فكان ذِكرَه، ومن كان ذكره عرفه، عرفه ذكرا محدثا لذكر قديم، تنزه الله في أمره، وتنزه المستقيم في أمره، حفظه الله من أوحال التوحيد، وسار به الله إلى فضاء التفريد، وتنزه الله عنده عن الإطلاق وعن التقييد، وقام بآلائه في التقييد لإدراك أناه، وفي الإطلاق لمعرفة معناه في مولاه، في معرفته عن نفسه، مقيدا، عبدًا مرسلا إليه، ومطلقا رسولًا من مطلقه في مطلقه.. إنسان الله الذي حَفِظَه الله من أوحال التوحيد، وسرى به الله في فضاء التفريد، فجعل منه التقييد، كما جعل له الإطلاق.

إنسان الله وعبد الله، من قرأ كتاب الله في نفسه كتابا له من الله بقيام الله عليه في قيام الحياة له، متأزلة متأبدة، ببعده عن الفناء بكسبها سرمدا، وقيامها أبدا. ذلك المسلم، ذلك المؤمن، ذلك الإنسان، ذلك المسيح مع عاليه، الباقي به في دانيه...

العبد.. العابد، المدرك بعبوديته، لمعاني عبادته، قيام عين معبوده، رفيقا أعلى في موجود موجوده، بدخوله في لا إله إلا الله، قياما، وشهودا، لمن قام فيه، وتقلب فيه بالسجود للانهائي، ومحا موجوده إلى وجوده، موجودا لله، عبدا ورسولا لله، حقا من حقائقه، وأحدا بين آحاده، يجمعها علمه عنه بأحديته، غيبا يقصد ولا يدرك في تنزيهه عن الإطلاق والتقييد، سيرا إليه في فضاء التفريد خلف رسول الله، خلف رسول الحقيقة، خلف قائد ركب عوالمه إليه، خلف ياقوتة أحدية ذاته وعين مظهر صفاته، من تنزلت علوم آدم به فيه عليه، فأعجز كلا من الخلائق فهم ما أُودع من السر فيه، وله تضاءلت الفهوم وكل عجزه يكفيه.

الرسول.. وهو على ما هو له، وعلى ما هي معاني العجز فيه، ليس بعيدا عن متابعيه، كما أنه ليس بعيدا عنهم ربه ومعطيه، فلهم من الله ما له، ما كانوا فيه، وما كانوا به، إلى فضاء التفريد المنزه عن الإطلاق وعن التقييد، ليكون لهم من الله ما أراد بهم الله، {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[٩]، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون}[١٠]، (لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا)[١١]. (حسب ابن آدم من الطعام لقيمات يقمن صلبه)[١٢]، ما خلق الله الإنسان، ولا الجان، إلا لنفسه، إلا ليعبدوا أنفسهم له، حتى يكونوا جذوة النار المقدسة للأعلى، وحتى يكونوا فجر النور للأشرق والأسمى، وجوها له، وأيدي ممتدة منه إلى خلقه، إلى

الناس، فما عرف الناس في الله إلا الناس، وما عرف الإنسان في الله إلا الإنسان، وما رَبَّ الإنسان في الله إلا الإنسان، وما رحم الإنسان إلا الإنسان، وما تلاقى الإنسان في الله إلا بالإنسان، الله لهم، والله بإحاطته من ورائهم، قاصيا ودانيا، مدينا وديانا، ربا وعبدا، فالإنسان محل الآلاء، ومحل الإحسان، لفاطره على فطرته، فاطر السماوات والأرض وما بينهما.

هذا ما تحملنا إليه لا إله إلا الله، سفينة نجاة، نركبها إلى فضاء التفريد، المنزه عن الإطلاق وعن التقييد، فنعلم أن الله ما يعلونا منا، وأن الله ما يسفلنا منا، بأسفل أنفسنا هاوية، تلقاها يد الله أسفل منها راحمة، ولها مُكرِمة، ومن العدم لها حافظة، فهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، فإذا تسامينا بأنفسنا، فتعالينا بها، فعرجنا تساميا، ولله طَلبا، حملتنا يد الله، ما دام الكبرياء بعيدا عنا، فإذا للكبرياء تذوقنا في مصعد، بنا، إلينا، بطشت بنا يد كبريائه، من أعلى، وعلينا أكبر، فردتنا إلى الأرض من حيث نشأنا وسرنا، فسرنا وهوينا من الأرض إلى أسفل فأسفل، حتى تلقانا يد رحمته مرة أخرى.

فالإنسان بين يدي رحمته، أعلى من عاليه، وأسفل من أسفله، ولو عرف الإنسان أنه بين يدي رحمته، فتأدب بأدب رسوله لكان يدا لرحمته، وقياما ليده بين يديه، وكان أمر الله الوسط، وحق الله الوسط، وإنسان الله الوسط، وأمة الله الوسط، فعرف أن خير الأمور الوسط، فعرف الله، واستقام في نفسه أمرًا لله، وعبدًا لله، وحقا لله، على ما رأى رسول الله أمره ونفسه، (من رآني فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي)[١٣]. وأنا المثل الأعلى لكم، ولله المثل الأعلى في السموات والأرض، وما لاقى طالب الله في السموات أو في الأرض، وما فوقهما وما دونهما، إلا مثلا أعلى بما قام به هو، من رؤيته في نفسه حقا قائما يعلوه حق ويسفله حق، يطلب الأعلى ويرحم الأدنى. فالمثل الأعلى للشيطان، الشيطان الأكبر يوم يكون له أعلى فيفيء إلى أمر الله. والمثل الأعلى للرحمن، الأرحم والأوسع والأحلم، ولله المثل الأعلى في السموات والأرض، وفي كل مجال، وفي كل ميدان، وفي كل معنى، وفي كل أمر.

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وأمر الله، المثل الأعلى لنا وعدناه وشهدناه، وهو لنا من الله ما استقمنا مع الله في متابعته، وشهدنا رسول الله حقا منه، نشهد أنه محمد، وأنه رسول الله، وأنه بمحامد الأخلاق حُمِد ووصف.

اللهم يا من هو لنا قبل أن نكون.. اللهم يا من هو لنا بعد أن نتوفى.. اللهم كن لنا في قائم، وارحمنا بك في دائم، وتكفلنا برسولك في رحيم.. اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا، فقد اضطرب أمرنا، وضاق

صدرنا، وتأزمت الحياة من حولنا، وغمرتنا الفتنة بظَلامها، وفقدنا سكينة الليل في منامنا، وجمال الشهود في نهارنا، وقيامنا، وها نحن في حمارة القيظ بفعلنا وغفلتنا.

اللهم أدخلنا في ظل رحمتك، واشملنا بكنف عنايتك، وأضفنا إلى الرسول، رسول رحمتك، حتى نُرحم، وحتى أنّا من الجهل نخرج فنعلم.. اللهم أسرِ بنورك منه فينا، وصل بنورك منه إلينا، حتى تُشرق مشكاة صدورنا، وحتى تهتز بالحياة أرض قلوبنا، وحتى تنطلق من سجن الذوات أرواحنا إلى فضاء التفريد، المنزه عن الإطلاق وعن التقييد، وحتى يشرق نور الحياة في عقولنا، فتستقيم به جوارحنا، وتُقوَّم به طريقنا.

اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا، وأصلح أمرنا حكاما ومحكومين، روادا ومرودين، قوادا ومقودين، يقظين وغافلين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أضواء على الطريق

سئل السيد الروح المرشد الحكيم (سلفربرش) عن الحد الذي تتدخل به الإرادة الصادرة من مفردات وجماعات البشر في سير التطور للبشرية فأجاب:

(إن الإرادة تلعب دورا هاما، ولكن تذكروا أنكم إذا استخدمتم هذا اللفظ فإنكم تقصدون شيئا مناقضا، إذ أنه لا توجد إرادة خالصة تماما، نظرا لأنها محكومة بالظروف التي لا تستطيع السيطرة عليها والتي سوف تخضع لها هي. الإرادة المطلقة تكيفها عوامل وقوانين عالمكم، وقوانين الكون الطبيعية، وحالتكم من التطور. ونحن نحاول دائما أن نصوب تأثيرنا نحو كل ما فيه تقدم ومساعدة للبشر. لا يمكننا التداخل في إرادتكم المطلقة ولكن يمكننا أن نوحي لكم باختيار رأي في الحياة أكثر صلاحية وتعقلا.

إن القانون الطبيعي للتجاذب سائر، لأنه ما دام هناك أواصر قربى بين مجموعتين فأفراد كل منهما يرغبون من تلقاء ذاتهم في مساعدة الذين يقومون بمهامهم. وعندما يفد لعالمنا سياسي كان منهمكا كثيرا في أحد مناهج الإصلاح ولم يكن قد أكمله أثناء حياته الأرضية، فإنه يجاهد ليؤثر على الآخرين الذين يبدون الميل لإتمام إصلاحه. هذا صحيح إلى درجة أن الوطنية تظل عاملة حتى في عالمنا، لفترة قصيرة حتى يزداد رقي الروح. وصحيح أيضا أن الذين ينتقلون من ذوي الآراء المتغطرسة أو من السكيرين أو مدمني المخدرات يحاولون إشباع ميولهم خلال الآخرين ممن يكون لديهم ميول مماثلة في عالمكم.)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٢ سورة الإنسان - ٣٠

٣ سورة الإنسان - ٣

٤ من حديث قدسي: ".. يا عبادي! إنَّما هي أعمالُكم تُرَدُّ عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمَدْني ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه." الراوي: أبو ذر الغفاري. المحدث: ابن تيمية المصدر: مجموع الفتاوى، وحلية الأولياء حكم المحدث: صحيح.

٥ سورة البقرة -٢٠٨

٦ سورة العاديات - ٦

٧ سورة عبس - ١٧

٨ حديث شريف: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). رواه أبو داود، والترمذي.

٩ سورة الذاريات - ٥٦

١٠ سورة الذاريات - ٥٧

١١ حديث شريف: "لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطيرَ: تغدوا خماصًا وتروح بطانًا." أخرجه أحمد، الترمذي، وابن ماجه.

١٢ حديث شريف: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه. (رواه الترمذي)

١٣ حديث شريف: مَن رآني فقَدْ رَأَى الحَقَّ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَكَوَّنُنِي." صحيح البخاري. وقد جاء بلفظ "مَن رآني في المَنامِ فقَدْ رآني، فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَشبه بي". صحيح ابن حبان.